العرب
الجمعة 2021/06/04
السنة 44 العدد 12079

بيروت لم تعد مدينة سمير قصير

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مرت الذكرى الـ16 لاغتيال الأخ والصديق سمير قصير فيما بيروت لم تعد بيروت ولبنان لم يعد لبنان.

كان سمير قصير اللبناني – السوري – الفلسطيني أحد رموز بيروت وثقافة الحياة في لبنان وذلك ليس بفضل مقاله الأسبوعي في جريدة "النهار" فحسب، بل بسبب نشاطه السياسي والثقافي والأكاديمي أيضا. هذا النشاط الذي شمل، بين ما شمله، كتاب عن تاريخ بيروت التي كان سمير قصير أحد العاشقين لها ولكلّ حيّ وزاوية فيها.

في الليلة الأخيرة التي كان فيها سمير قصير على قيد الحياة، كان فرحه لا يوصف بعدما شعر بالحرّية وخرج من مطار بيروت وعاد إلى لبنان عبره من دون مضايقات. احتفل سمير قصير بحرّيته على طريقته.

عشية الجريمة، كنّا مجموعة من الأصدقاء في مطعم "لو روج" في حيّ الجمّيزة العريق الذي كان يعجّ بالحياة. لم يبدّد فرح سمير قصير في تلك الليلة (مساء الأول من حزيران – يونيو 2005)، بعد مضيّ شهر ونصف شهر على الانسحاب العسكري السوري، سوى هاجس واحد. كان مصدر هذا الهاجس تصرّفات ميشال عون العائد حديثا إلى لبنان من منفاه الفرنسي. راح سمير قصير يتحدّث عن أفكار لمقاله الجديد على نسق مقال قديم له عنونه "عسكر على مين يا عسكر". لم يخف أن المقال موجّه إلى ميشال عون وتصرّفاته الغريبة وبداية تحوّله من مناهض للاحتلال السوري إلى متغاض عنه وذلك تمهيدا للتفاهم مع "حزب الله" الذي ملأ نيابة عن إيران الفراغ الذي خلّفه الانسحاب العسكري والأمني السوري من لبنان.

سمير قصير إذا عاد اليوم إلى بيروت سيتأكد أنها لم تعد مدينته بدل أن تكون بيروت رافعة للثورة الشعبية السورية، هناك لبنانيون يشاركون في الحرب على الشعب السوري.. فيما بيروت صامتة

كان اغتيال سمير قصير الاغتيال الأوّل من نوعه بعد تفجير موكب رفيق الحريري في 14 شباط – فبراير 2005. تكمن خطورة الاغتيال في وجود جهة وجدت أنّ التخلّص من رفيق الحريري، الذي أعاد لبنان إلى خارطة المنطقة، ليس كافيا. لم يكن كافيا للقضاء على بيروت وإلغاء دورها بعدما صمدت المدينة كلّ هذا الوقت ونفضت عنها غبار الحرب الداخلية وحروب الآخرين على أرض لبنان. أكثر من ذلك، عادت بيروت مدينة موحّدة وعادت تجذب العرب والأجانب وتبعث الأمل بمستقبل أفضل للبنان.

جاء استهداف سمير قصير من أجل تأكيد أن لا مكان لثقافة الحياة في لبنان المطلوب تدميره بشكل كامل وإفراغه من أيّ كفاءة أو قطاع ناجح. يكفي عرض لائحة بالشخصيات التي اغتيلت تباعا بعد سمير قصير، بدءا بجورج حاوي وجبران تويني وصولا إلى محمّد شطح ولقمان سليم، مرورا بوليد عيدو وأنطوان غانم وبيار أمين الجميّل ووسام الحسن ووسام عيد للتأكّد من أمور عدّة. بين هذه الأمور أن بين الأهداف المطلوب الوصول إليها إسكات أي صوت لبناني يجرؤ على تسمية الأشياء بأسمائها أو كشف من وراء اغتيال رفيق الحريري ورفاقه وقبل ذلك محاولة اغتيال مروان حمادة في أوّل تشرين الأوّل – أكتوبر 2004. بكلام أوضح، المطلوب اغتيال لبنان. هذا ما رآه سمير قصير باكرا عندما استشفّ خطورة ما يقوم به ميشال عون الذي يتبيّن كلّ يوم أكثر لماذا كان ذلك الإصرار لدى "حزب الله" للإتيان به رئيسا للجمهورية.

تكفي نظرة سريعة إلى ما آل إليه لبنان في الثاني من حزيران – يونيو 2021، يوم مرور 16 عاما على اغتيال سمير قصير للتأكّد من أن لبنان استسلم أخيرا لقدره البائس بعدما قاوم طويلا المحاولات المستمرّة لإخضاعه وتحويله إلى مجرّد تابع لإيران، ولتكون بيروت بمثابة ضاحية من الضواحي الفقيرة لطهران.

بقي سمير قصير حيّا من خلال النشاطات التي كانت وراءها امرأة جبّارة وشجاعة، امرأة استثنائيّة، اسمها جيزيل خوري، زوجة سمير قصير. بقيت الجائزة السنوية لسمير قصير وبقيت مؤسسة سمير قصير (عيون سمير قصير) التي تدافع عن الحريات الصحافية والصحافيين في كلّ أنحاء المنطقة. ما لم يبقَ هو الاحتفال بتسليم الجائزة. فقد كلّ نشاط مرتبط بثقافة الفرح نكهته في لبنان. لم تعد هناك حفلات مسرحيّة وثقافية وموسيقيّة من أيّ نوع بسبب الوضع الذي تعاني منه بيروت التي تمكّن منها الحزن، كما تمكّنت منها ثقافة الموت أخيرا.

كان توجّس سمير قصير من ميشال عون في محلّه مساء الأول من حزيران – يونيو 2005 في مطعم "لو روج".

بعد 16 عاما على تلك الليلة، فقدت بيروت كلّ مقومات الحياة. فقد لبنان كل أسباب تميزه وكل مقومات هذا التميّز. في ظل "العهد القوي"، حيث لا همّ لرئيس الجمهورية سوى إنقاذ المستقبل السياسي لصهره جبران باسيل الذي فرضت عليه عقوبات أميركية، لا كهرباء ولا دواء ولا مصارف ولا جامعات ولا صحف ولا ليرة لبنانية صامدة. هناك عدد قليل من الفضائيات ما زالت تؤكد الحضور الإعلامي للبنان في ظروف أقلّ ما يمكن أن توصف به أنها في غاية التعقيد والصعوبة.

إذا عاد سمير قصير اليوم إلى بيروت، سيتأكد أنها لم تعد مدينته. لم تعد بيروت عاصمة العرب من المحيط إلى الخليج. بدل أن تكون بيروت رافعة للثورة الشعبية السورية التي انطلقت قبل عشر سنوات، هناك لبنانيون يشاركون في الحرب على الشعب السوري... فيما بيروت صامتة. من سخرية القدر أنّ في لبنان رئيسا للجمهورية وصهره يدعمان بشّار الأسد ويفرحان بفوزه في انتخابات رئاسيّة، أقلّ ما يمكن أن توصف به أنّها مهزلة المهازل. أكثر من ذلك، لا وجود لمن يسأل عن اللبنانيين في السجون السوريّة وكأن هؤلاء حصلوا على حقوقهم بمجرّد أن ميشال عون صار رئيسا للجمهورية!

هل بات في الإمكان القول إن سمير قصير مات فعلا؟ هل مات فعلا مع تفجير مرفأ بيروت في الرابع من آب – أغسطس 2020 وبعدما تبيّن أن لا وجود لمن يريد معرفة من فجّر المرفأ أو لماذا تفجّر؟

المفارقة أنّ حيّ الجمّيزة الذي أمضى فيه سمير قصير السهرة الأخيرة مع أصدقاء له، كان إحدى الضحايا الأساسية لتفجير ميناء بيروت. الحيّ على مسافة قريبة من المرفأ. هل كان تفجير المرفأ الموت الثاني، بل الحقيقي، لسمير قصير بعد نجاته من الموت الأوّل؟

العراق: الداء والدواء وما استعصى على الحل

علي الصراف
كاتب عراقي

إذا سمحت المواجهة الأخيرة بين مصطفى الكاظمي والحشد الشعبي بأن تنأى به عن شكوك التواطؤ مع المشروع الإيراني، فإن الأمر مختلف تماما بالنسبة إلى المؤسسة الأمنية والعسكرية التي يتصدرها، بوصفه "القائد العام للقوات المسلحة" بحكم منصبه كرئيس للوزراء.

لقد تسلل المشروع الإيراني إلى هذه المؤسسة ليجعل منها، في النهاية، ظلا للحشد الشعبي.

أعمال التدمير المنهجي التي لحقت بالجيش العراقي على مدار الأعوام الـ18 الماضية، جعلت منه قوة ثانوية، تناظر القوة الثانوية التي يمثلها الجيش الإيراني نفسه في موازاة "الحرس الثوري".

نحن هنا نتحدث عن مطابقات يجري تجسيدها بكل الوسائل، من دون أن تكون معلنة. الإيرانيون أنفسهم لا يقولون إن جيشهم هامشي.

هناك بقية باقية من إرث عقائدية عسكرية لدى خريجي الكليات العسكرية في العراق ومدارس الأركان، وهي عقائدية وطنية أيضا، لم يتمكن "حل الجيش" في العام 2003 من حلّها تماما، إلا أن عقائدية أخرى طائفية وجهوية تسللت إليه قسرا، وفرضت نفسها على قيم السلوك والمراتب فيه.

شيء واحد يسهم الآن في إنقاذ العقائدية القديمة، هو أن المشروع الطائفي الإيراني، قبيح ومتقيّح وصعلوكي إلى درجة لا تستقيم حتى مع أدنى المعايير الأخلاقية، ولا العسكرية، ولا الإنسانية.

لدى العراقيين الآن جيش جاش عليه الصعاليك وحاولوا أن يسموه بسماتهم حتى لم تعد الرتب العسكرية العالية تحظى بما كانت تحظى به أدناها من قبل. إلا أن العلة ليست في زحمة المنتسبين الجدد، ولا في الطرد الجماعي لقادة ومراتب الجيش السابق. العلة في البيئة التي تعيش المؤسسة العسكرية فيها الآن.

هذه البيئة هي بيئة "حشد شعبي"، بكل ما تعنيه من فساد وشرور وانتهاكات وأعمال لا أخلاقية ولا وطنية. إنها بيئة ولاء خارجي. أو بعبارة أوضح بيئة عمالة صريحة وارتباط روحي وقح ببلد آخر. وهو ما يجعل المؤسسة العسكرية، في جانبيها: المتن والظل، جيش احتلال، يؤدي وظيفة التخريب والتدمير والقتل والنهب، لصالح البلد الأم، لا جيشا وطنيا.

هذا وضع لا تكفي لحله مواجهةٌ واحدة. وفي الواقع، فحتى ولو بدا أن الكاظمي نجح في اعتقال مجرم واحد، فإنه يخوض بالأحرى مواجهة خاسرة، مع مؤسسة الجريمة التي تهيمن على العراق.

الحشد الشعبي يمكنه أن يستغني عن واحد من قادة فرق الاغتيالات، لأغراض وحسابات تقنعه الآن، بأن الوقت ليس ملائما لخوض معركة لم يتم ترتيب نتائجها مسبقا. إلا أن ذلك لا يعني أن المعركة لن تأتي. كما أنها لا تعني أن الحشد ومن يحتشد في ظلاله، سوف يتخلى عن مكانته كقوة احتلال إيراني قادر على أن يملي إرادته ساعة تشاء طهران.

المسألة أبعد، بطبيعة الحال، من مجرد صنع أجواء مناسبة للفوز في الانتخابات المزمعة في أكتوبر المقبل. إنها مسألة تتعلق بمصائر المشروع الطائفي نفسه، وغلبة الأدوات الإيرانية فيه.

هذه قصة أكبر من الكاظمي. إنها قصة ما إذا كان هناك مشروع وطني مضاد قادر على خوض المواجهة مع أدوات الاحتلال وأزلامه وصعاليكه ومفسديه الذين تسللوا إلى كل مؤسسات الدولة، وصنعوا فوقها دولة موازية أقوى منها.

الكاظمي لم يأت إلى منصبه من هذه القصة. جميل لو أنه كان يقدر على الانتساب لها. إلا أنه أضعف من ذلك. يوم ذهب ليرتدي سترة الحشد الشعبي، إنما أراد أن يشير إلى أنه منتم إلى المشروع الإيراني وقصته. ربما فعل ذلك خوفا، أو تقية أو لأسباب انتهازية. ولكن هذه الأسباب نفسها لا تدل على أنه أصبح قادرا بقدرة قادر على الانتماء إلى قصة مشروع وطني.

قصارى القول، إن المواجهة أكبر من كل عناصرها. أكبر من الحشد الشعبي نفسه.

تظاهرات الاحتجاج قدمت صورة لمشروع مضاد. هذه التظاهرات لم تتبلور بعد كتيار قادر على إخراج العراق من دائرة الاحتلال الإيراني. ليس بعد.

وهي لم تقدم أجوبة متناسقة حول ما إذا كان يمكن المشاركة في الانتخابات أو مقاطعتها أو سبل مواجهة ما قد يأتي من بعد ذلك.

مناهضو المشروع الإيراني في العراق هم الأغلبية من الناحية العددية. هذا شيء يمكن تلمّسه ليس في حقيقة أن الاحتجاجات ظلت تستقطب الملايين، بل بحقيقة أن أنظمة الفساد هي بطبيعتها أنظمة أقلية. وهي في العراق نظام أقلية وعصابات مسلحة.

قد يعني ذلك أن الأغلبية قادرة نظريا على تحقيق الفوز في أي انتخابات. إلا أن دولة العصابة، أينما كانت، هي التي تفوز دائما. دكتاتور تافه مثل ألكسندر لوكاشينكو في "روسيا البيضاء"، يستطيع أن يفوز دائما لمجرد أنه حليف لفلاديمير بوتين. واحد آخر أتفه منه يستطيع أن يبقى في السلطة إلى الأبد، ولو كان على خراب وجماجم تعادل إلقاء عشرين قنبلة نووية.

هذه قصة أكبر من الكاظمي، إنها قصة ما إذا كان هناك مشروع وطني مضاد قادر على خوض المواجهة مع أدوات الاحتلال ومفسديه الذين تسللوا إلى مؤسسات الدولة وصنعوا فوقها دولة موازية

هذا يعني أن السلاح بيد الأغلبية قد لا يعني شيئا هو الآخر. وقد لا يكون، بحسب النموذج الإيراني في سوريا هو السبيل الأمثل للتغيير.

ولكن هناك شيء واحد قد يمكن الرهان عليه. هو الفشل نفسه.

الفشل إذا كان هو ما دفع إلى بروز تيار شعبي مناهض للاحتلال وأزلامه وحشده، فإنه هو الحل أيضا.

تعميق الفشل خيار عقلاني تماما في مواجهة دولة العصابة التي تملك السلاح ولا تتردد في ارتكاب أكبر المجازر وتملك القدرة على الفوز في كل انتخابات.

يمكن الانخراط في بعض جوانب هذه اللعبة أو تلك، ولكن تعميق الفشل إلى الحد الذي يدفع إلى انهيار شامل، هو الهدف الذي يجعل قوى الاحتلال تعجز عن إدارة الخراب.

أنا لم أفهم حتى الآن (وعذرا عن "أنا" غير مقصودة لذاتها)، لماذا ظل النفط يتدفق على امتداد كل هذه السنوات لكي يمول لإيران مشروعها في العراق؟ شيء عجيب فعلا. هل كانت عصابات إيران لتبقى لو أنها لم تجد ما تنهبه؟ أو لو أن النظام الذي تتربع على عرشه بات مفلسا؟

لقد خربوا كل شيء، وظل النفط وحده يوفر العائد المطلوب. أكثر من تريليون دولار ضاعت من هذا النفط بالذات. ماذا كان سيحصل لو أن كل الأنابيب تفجّرت؟ وظلت تتفجر حتى لا تعود هناك صادرات تتحول إلى أموال يتم نهبها، ويذهب قسطها الأكبر إلى دولة الاحتلال وعصاباته وأزلامه؟

ليش يعني؟ شنو السبب؟ وما هي العبقرية الاقتصادية التي تخاف من أن يعيش العراقيون في ظلام دامس، هم يعيشون به أصلا؟ ومن قال إن الظلام الدامس والفشل الشامل شيء ضار فعلا من وجهة نظر التحرّر؟

"داوها بالتي كانت هي الداء". هذا حل معقول أيضا، لأن الداء الذي بات مستعصيا إلى درجة أنه صار هو الجيش والحكومة والبرلمان وكل مؤسسات الدولة، يحسن أن يصل إلى نهاياته القصوى. وكلما كان ذلك أسرع، كلما كان أوفر. على الأقل سيوفر العراقيون على أنفسهم التريليون الآخر.

ساعتها فقط يمكن لقصة الوطنية أن تستقطب جيشا بقيم، وستعثر على رئيس وزراء أشجع.